

## تفسير السعدي

@ 266 @ تؤفكون \* فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم \* وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون \* وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ) ^ يخبر تعالى ، عن كماله ، وعظمة سلطانه ، وقوة اقتداره ، وسعة رحمته ، وعموم كرمه ، وشدة عنايته بخلقه ، فقال : ^ ( إن ا فالف الحب ) ^ شامل لكل الحبوب ، التي يباشر الناس زرعها ، والتي لا يباشرونها ، كالحبوب التي يبتها ا في البراري والقفار . فيفلق الحبوب عن الزروع والنباتات ، على اختلاف أنواعها ، وأشكالها ، ومنافعها . ويفلق النوى عن الأشجار ، من النخيل ، والفواكه ، وغير ذلك . فينتفع بها الخلق ، من الآدميين والأنعام ، والدواب . ويرتعون فيما فلق ا ، من الحب ، والنوى . ويقتاتون ، وينتفعون بجميع أنواع المنافع ، التي جعلها ا في ذلك . ويريهما ا من بره وإحسانه ما يبهر العقول ، ويذهل الفحول . ويريهما من بدائع صنعته ، وكمال حكمته ، ما به يعرفونه ويوحدونه ، ويعلمون أنه هو الحق ، وأن عبادة ما سواه ، باطلة . ^ ( يخرج الحي من الميت ) ^ كما يخرج من المني حيوانا ، ومن البيضة فرخا ، ومن الحب والنوى ، زرعا وشجرا . ^ ( ومخرج الميت ) ^ وهو الذي لا نمو فيه ، أو لا روح ^ ( من الحي ) ^ . كما يخرج من الأشجار والزروع ، النوى ، والحب ، ويخرج من الطائر بيضا ونحو ذلك . ^ ( ذلكم ) ^ الذي فعل ما فعل ، وانفرد بخلق هذه الأشياء وتدبيرها ^ ( ا ربكم ) ^ أي : الذي له الألوهية والعبادة على خلقه أجمعين . وهو الذي ربي جميع العالمين بنعمه ، وغذاهم بكرمه . ^ ( فأنى تؤفكون ) ^ أي : فأنى تصرفون ، وتصدون عن عبادة من هذا شأنه ، إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا ؟ ولما ذكر تعالى ، مادة خلق الأقوات ، ذكر منته بتهيئة المساكن ، وخلق كل ما يحتاج إليه العباد ، من الضياء ، والظلمة ، وما يترتب على ذلك ، من أنواع المنافع والمصالح فقال : ^ ( فالق الإصباح ) ^ أي : كما أنه فالق الحب والنوى ، كذلك هو فالق ظلمة الليل الداجي ، الشامل لما على وجه الأرض ، بضياء الصبح الذي يفلقه شيئا فشيئا ، حتى تذهب ظلمة الليل كلها ، ويخلفها الضياء والنور العام ، الذي يتصرف به الخلق ، في مصالحهم ، ومعاشهم ، ومنافع دينهم ودنياهم . ولما كان الخلق محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة ، التي لا تتم إلا بوجود النهار والنور ^ ( جعل ) ^ ! 2 ! 2 ! ( الليل سكنا ) ^ يسكن فيه الآدميون إلى دورهم ومنامهم ، والأنعام إلى مأواها ، والطيور إلى أوكارها ، فتأخذ نصيبها من الراحة . ثم يزيل ا ذلك ،

بالضياء ، وهكذا أبدا إلى يوم القيامة . ^ ( و ) ^ جعل تعالى ^ ( الشمس والقمر حسبنا  
( بهما تعرف الأزمنة والأوقات ، فتنضبط بذلك أوقات العبادات ، وآجال المعاملات ، ويعرف  
بها مدة ما مضى من الأوقات التي لولا وجود الشمس والقمر ، وتناوبهما ، واختلافهما لما عرف  
ذلك ، عامة الناس ، واشتركوا في علمه . بل كان لا يعرفه ، إلا أفراد من الناس ، بعد  
الاجتهاد ، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ، ما يفوت . ^ ( ذلك ) ^ التقدير المذكور ^  
( تقدير العزيز العليم ) ^ الذي من عزته انقادت له هذه المخلوقات العظيمة ، فجرت مذلة  
مسخرة بأمره ، بحيث لا تتعدى ما حده إلا لها ، ولا تتقدم عنه ولا تتأخر . ^ ( العليم ) ^  
الذي أحاط علمه ، بالظواهر والبواطن ، والأوائل والأواخر . ومن الأدلة العقلية على إحاطة  
علمه ، تسخير هذه المخلوقات العظيمة ، على تقدير ، ونظام بديع ، تحيرت العقول ، في  
حسنه ، وكماله ، وموافقته للمصالح والحكم . ^ ( وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها  
في ظلمات البر والبحر ) ^ حين تشتبه عليكم المسالك ، ويتحير في سيره السالك . فجعل  
الـ النجوم ، هداية للخلق إلى السبيل ، التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم ، وتجاراتهم ،  
وأسفارهم . منها : نجوم لا تزال ترى ، ولا تسير عن محلها . ومنها : ما هو مستمر السير ،  
يعرف سيره أهل المعرفة بذلك ، ويعرفون به الجهات والأوقات . ودلت هذه الآية ونحوها ، على  
مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها الذي يسمى علم التسيير ، فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن  
، إلا بذلك . ^ ( قد فصلنا الآيات ) ^ أي : بينها ، ووضحناها ، وميزنا كل جنس ونوع منها  
عن الآخر ، بحيث صارت آيات الـ ، بادية ظاهرة . ^ ( لقوم يعلمون ) ^ أي : لأهل العلم  
والمعرفة ، فإنهم الذين يوجه إليهم الخطاب ، ويطلب منهم الجواب . بخلاف أهل الجهل  
والجفاء ، المعرضين عن آيات الـ ، وعن العلم الذي جاءت به الرسل ، فإن البيان لا يفيدهم  
شيئا ، والتفصيل ، لا يزيل عنهم ملتبسا ، والإيضاح لا يكشف لهم مشكلا . ^ ( وهو الذي  
أنشأكم من نفس واحدة ) ^ وهو : آدم عليه السلام . أنشأ الـ منه هذا العنصر الآدمي ؛ الذي  
قد ملأ الأرض . ولم يزل في زيادة ونمو ، الذي قد تفاوت في أخلاقه وخلقه ، وأوصافه ،  
تفاوتا لا يمكن ضبطه ، ولا يدرك وصفه . وجعل الـ لهم مستقرا ، أي منتهى ينتهون إليه ،  
وغاية يساقون إليها وهي : دار القرار ، التي لا مستقر وراءها ، ولا نهاية فوقها . فهذه  
الدار ، هي التي خلق الخلق لسكنائها ، وأوجدوا في الدنيا ، ليسعوا في أسبابها ، التي  
تنشأ عليها وتعمر بها . وأودعهم الـ في أصلاب آبائهم ، وأرحام أمهاتهم ، ثم في دار  
الدنيا ، ثم في البرزخ . كل ذلك ، على وجه الوديدة ، التي لا تستقر